داود باشـــا
ونهضة العراق الأدبية
في القرن التاسع عشر

للمرحوم الأستاذ رزوق عيسى

— ٢ —

ومن آثاره الجامع المسمى باسمه في الكرخ قرب مقام الخضر، والشارع الذي وسمه والباب الذي فتحه في الرصافة بالقرب من رأس الجسر القديم بجانب التكنة « القشلة » وقد نقشت فوق رتاجه هذه الأبيات :

آثار داود آثار بها ابتسمت ... بغدادُ حسناً يروق العين واضحه
تشكو الرصافة قدماً ضيق مسلكها ... ويكره الضيف غاديه ورائحه
فأُمنحتَ بطريق لازحام به ... وباب جسر حُبي بالنصر فاتحهُ
يخاطب الملكَ الأعلى كأن به ... شوقاً إلى المشترى يبغي بصالحهُ
أعيا أبا جعفر المنصور حين بنى ... حظُّ أبو يوسف المنصور رابحهُ
داود من أُيدت بالنصر دولتهُ ... وعن لسان الثنا سارت مدائحه
لا زلت تسمع خيراً من مؤرخه ... بابٌ وداود ربُّ الفتح فاتحهُ

١٢٤١ هـ

ومن آثاره أيضاً الجامع القائم بسوق المرجة الذي شيد معالمه بعد درسها وقد كتب فوق بابه ما يلي :

ذا جامع كان قدماً لا شبيه له ... في حسن بنيانه والدهر غيرهُ
وكم وزير أتى الزوراء ثم مضى ... ولا لغير خيام الجند سيرهُ
حتى أتى ذا العلى داود آصفنا ... من حك بالسبعة الأفلاك مفخره
فشاد أطنابه من بعد ما انهدمت ... للعابدين ووشـــاه وصوره
وحين تم غدا الداعي يؤرخه ... ذا جامع بالندى داود عمره

١٢٤٢ هـ

اهتم داود باشا اهتماما عظيما بتوسيع نطاق التجارة والزراعة وترقيتهما فحكرى الأنهر وشق الريح ومنها نهر عيسى المعروف اليوم باسم أبي غريب الواقع في الجانب الغربي من بغداد ، وقد نظم الشيخ صالح الحيمي قصيدة عامرة الأبيات مطلعها :

لو نهر عيسى يحاكي فيض محييه ... لصير الماء في أعلى روابيه
نهر عليه ظباء الوحش عاكفة ... دهراً فعادت ظباء الأنس تأويه

ولما تم كرى نهر عيسى شرع في كرى نهر النيل الواقع في لواء الحلة ، فأمر بحشد خمسة آلاف فاعل ، وقد أنجز حفره عام ١٢٤٢ هـ ، فأكثر الشعراء من مدح الترجم بقصائدهم ومنهم الشيخ صالح الحيمي الشاعر المطبوع القائل في مطلع قصيدته هذه :

دع نهر عيسى وحدثني عن النيل ... واجر الحديث بإجمال وتفصيل
نيل ولا مصر لكن في جوانبه ... نضارة لم تكن في مصر والنيل

ومن مآثره اهتمامه بفتح المدارس وإنشاء المعاهد العلمية والأدبية وقد بلغت في زمن ولايته نحو ثلاثين مدرسة بين عالية وابتدائية ومنها المدرسة المعروفة باسمه وقد نالت شهرة واسعة .

شـــعره

كان صاحب الترجمة يحسن العربية ويجيد قواعدها وشواردها وله وقوف على آدابها ، وقد نظم قصائد عديدة ، وديجت براعته رسائل كثيرة بعث بها إلى أصحابه وإخوانه ؛ غير أن آثاره الأدبية فقد معظمها ولم يثبت منها سوى الشيء النزر في بطون الدواوين وعلى صفحات المهارق ، وقد ورد في سجع الحمامة وهو ديوان بطرس كرامة ص ٣٢٤ ما نصه : وقال نخمسا والأصل بيتان لبعض شعراء العراق شطرهما داود باشا والي بغداد سابقا :

زند الأسى بين الجوانح قدوري ... لما تأخر ذو الأمام إلى ورا
أين الوفا والغدر قد عم الورى ... ولقد يشق على النواظر أن ترى
ذا همة في ذلة وصـــغار

أضحى النبيل الفرد منفصم العرى ... مما يؤمل جاهداً فوق المرا[1]
يا لهف نفس مرة مما عرى ... ما كنت أوثر أن أشاهد أو أرى
كبراء قوم في أكف صغار

فالدهر خصم إن بدا اطراقه ... وإذا الزمان تراجعت أخلاقه
سلب الرئاسة من يد الأحرار

(١) ساحة الدار .

لعب الزمان بنا فليس بغـادر شهماً يميز عاذراً من غادر
يا طالباً شمساً بليل غادر[1] ما ذا تؤمل من زمان جائر
جعل الخيـار بقبضة الأشرار

ومنها قصيدته المعروفة بالدرع الداودية ، فقد وجدت فى خزانة جرجس بك صفا ، أوقفه عليهـا الأمير سعد حفيد الأمير بشير الشهابى الـكبير ، وهى من مخلفات شعر جده بطرس كرامه ، وها نحن أولاء ندرجها كلها لأننا لم نقف على غيرها من نظم ذلك الوزير الشاعر :

الدرع الداوودية

أما آن للأحباب أن ينصـفوا معنا
فزاغوا وما زغنـا وحالوا وما حلنا
نعم هجروا واستبدلوا الوصـل بالجفا
وخانوا عهـــوداً ماضيات وما خنا
رعينا حقوقاً لا علينا نعم لنا عليهم حقوق سالفات ولا منا
وفينا ولم نغـــدر فـكان جزاؤنا
جـزاء أم عمرو فافهم اللفظ والمعنى
وإنا لقـــوم نحفظ الود غـيرة
ونرعى ذماماً إن حضرنا وإن غبنا
وإن جيشوا جيشـاً من الصد والجفا
بنينا من الصبر الجميل لهم حصنا
هم زعموا أن كل برق يخيفنا نخابوا بما قالوا وقلنا وما خبنا
إذا ضـــيعوا حق فهم يعرفونني
إذا هبت النـكباء كنت لهم ركنا
وإنى أبى أن ألم بريبة وأستعطف الحب اللئيم أو الأدنى
وما كان عيبى عندهم غير أننى إذا بيعت الأرواح لا أدعى الغبنا
وإن قام سوق الحرب إنى أشدهم لأعدائهم بأساً وأكثرهم طعنا
وأثبتهم جأشـاً وأطولهم يداً وأوفاهم عهداً وأكبرهم سنا
وأحكمهم عقـداً وأمنعهم حمى وأصدقهم قولا وأوسعهم مغنى
أجامل أقواماً ولاّ لا مهابة فيزعم قوم أننـا منهم خفنا
وأسـكت إبقاء لود علمته وعندى مقال يجعل الظهر والبطنا

ولو وقفوا يوم الرهان مواقفى لأهديتهم روحى ومالى وما يغنى
فيا أســـفى ضيعت عصر شبيبتى
بكل خفيف القـدر لا يعرف الوزنا
فإن وصلوا حبلى وصلت حبالهم وإن قرعوا سنى جدعت لهم أذنا
إذا همُ فى إســـعادنا لمة ألمت بنا قد أسعفونا فلا عشنا
وظنوا بأن الآل يشفى من الصدى نخاضوا به للورد جهلا وما خضنا
وقد بدلوا الغالى الذى تعرفونه بصفقة غبن لا نقيس بها غبنا
ولو علموا ما يعقب النبن فى غد لقيل لهم تبت يدا كم وما أغنى
صحائف عنـــدى غيرة قد طويتهـا
ولو نشرت يوماً لقصـــوا لها ذقنا
أجـــول بطرفى فى العراق فلا أرى
من الناس إلا مظهر البغض والشجنا
نخيرهم للأجنبى وقبحهم على بعضهم بعض يفدونه حسنا
وشبانهم شـابوا المودة بالجفا وشينا وما للصفو فى كدر شبنا
حضرنا متى غابوا بموقف حـــربهم
وإن حضروا فى موقف للخنـا غبنا
سمرنا مع الســـمر الموالى لياليا
وهم سمروا فى ذكر سـعدى وفى لبنى
جفوا فوصلنا حبلهم بعد قطعه فدع منهم يبدو الجفاء ولا منا
ألا نخوة منهم فيصغون للذى أيادى سبأ قد لاعبت ذلك المغنى
ألا حازم للرشـد شد حزامه لداهية ينسى بها الطائر الوكنا
ألا مرشد منهم عن الغى قومه فيوقفهم منه على السنن الأسنى
ألا رافع عن قومه بغى ظـالم
إذا فقدوا فى الحرب من يتطح القرنا
وكان إذا أبدى التشاجر نابه يفرون مثل الجر عنه وما كنا
ومن كل ناموس ويأس تخلصوا كما نحن من غل وغش تخلصنا
لقد حملوا ما يثقل الظهر من خنى كأنهم من ماله حملوا سفنا
متى تعتفر أيامنا من ذنوبها وهيهات من غدر لومسة لحنا
فكم طعنت قوماً بجؤجؤ صـدرها
وما أصلحت يوماً دقيقاً ولا طحنا
وعصبة لؤم قد تناجوا لحربنا فياويحهم ما ذا يلاقونه منا
ترامـوا وحاشا المجد أن يتقدموا علينا وهاموا بالأمانى وما همنا

(١) مظلم .

وطاشوا ببرق خلب لا أبالهم ... وسلوا علينا الرهفات وما خفنا
فقل لي بماذا يفخرون على الورى ... إذا عدت الآباء أو ذكروا الإبنا
فهبهم على المجد الأثيل تسنموا ... ألا يعلمون المجد بالقول لا يبنى
ألا غيرة تدعو الصريخ إذا دعا ... ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى
طوينا عن الزوراء لادر درها ... بساطا متى ينشر نعد به طمنا
وإني وإن كنت ابنها ورضيعها ... فقد أنكرتني لاسقاها الحيا زنا
إلى الله أشكو من زمان تخاذلت ... خيار الورى فيه وساؤوا بنا ظنا
وباع بفلس كل خل خليله ... وصار الكريم الحر يسترفد القنا
ألا مبلغ عني سراة بني الوغى ... وأقيال عرب كيف صبرهم عنا
أهم بأمر الحزم في حومة الوغى ... ومن ناهز السبعين أني له أنى
إذا كفي اليسرى أشارت لناقص ... قطعت لها زنداً وألحقتها اليمنى
وأنا إذا صاح الصريخ لحادث ... أجبنا ولبينا لمن فيه أنبأنا
على الكرخ في الزوراء مني تحية ... وألف سلام ما بها ساجع غنى
صحبتهم طفلا على السخط والرضى ... وشبت فلا سيفي أفاد ولا أغنى

وبعد مضي أربع عشرة سنة على ولايته في بغداد سولت له نفسه أن يستقل بالقطر العراقي ويمسي أميره كما فعل محمد علي باشا والي مصر، غير أنه لم يفز بوطره إذ فشا على أثر خروجه على الدولة العثمانية طاعون شديد الوطأة في بغداد وما جاورها من البلاد بحيث ثبط عزمه وشتت شمل جيوشه. فلما انتهى إلى الآستانة خبر عصيانه أرسل السلطان محمود خان نحو عشرين ألف مقاتل يقودهم علي رضا باشا والي حلب لكبح جماح الوالي المتمرد، فباغت قائدهم مدينة بغداد وشدد عليها الحصار بينما كان أميرها المستقل منهمكا في تحصين أسوارها وتقوية حاميتها، وبعد مناوشات عديدة وهجوم ودفاع رأى أن لا طاقة له على القراع والكفاح لموت معظم جنوده بالوباء، فأذعن لخصمه وسلم نفسه أسيراً، فأرسل على الفور إلى الآستانة مخفوراً، وقد برح عاصمة العباسيين قاصداً القسطنطينية عام ١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ م حيث عفى عنه، وابقى مزيد الحفاوة والإكرام لكثرة خدماته السالفة للدولة، وبقي مشمولا بالرعاية والالتفات، مدة إقامته في عاصمة المملكة.

لقد حمت الترجم لجة الأدب بالشاعر الفلق المعلم بطرس كرامة الذي أتحفه بقصيدته الخالية التي بعث بها إلى طائفة من أدباء وشعراء بغداد وطلب منهم أن ينسجوا على منوالها ويباروا صاحبها وهاك مطلعها وبعض أبياتها:

أمن خدها الوردي أفتنك الخال ... فسح من الأجفان مدمعك الخضل(١)
وأومض برق من محيا جمالها ... لعينيك أم من ثغرها أومض الخال(٢)
رعى الله ذياك الغوام وإن يكن ... تلاعب في أعطافه التيه والخال(٣)
ولله هاتيك الجفون فإنها ... على الفتك بهواها أخو العشق والخال(٤)
مهاة أفتديها ووالدي ... وإن لام عمي الطيب الأصل والخال(٥)

اقترح صاحب الترجمة على الشيخ عبد الباقي العمري أن ينسج على منوال خالية بطرس كرامه فعارضها بقصيدة غراء مطلعها:

إلى الروم أصبو كلما أومض الخال ... فأسكب دمعاً دون تسكابه الخال
وعن مدح داود وطيب ثنائه ... فلا القد يثنيني ولا الخد والخال

وقد ختمها بهذين البيتين:

وإني وإن كنت الرديف نظامه ... لمسبوقة حسن الردى لها الخال(٦)
فذي معجزاتي ما أرى ابن كرامة ... يعارضها حتى يصاحبه الخال(٧)

(يتبع) رزوق عيسى

(١) الخضل في الشطر الأول شامة الخد وفي الثاني السحابة الماطرة.
(٢) الخال: البرق.
(٣) الخال: العجب والكبرياء.
( ) الخال ضد الداشق: أي الخالي من الحب.
(٥) الخال: أخو الأم.
(٦) الخال: النقطة.
(٧) الخال: الكفن.